سارِقُ النار

كتب الشابى عددًا من القصائد الهامة تدور كلها حول فكرة (إرادة الحياة) وكتب قصائد عن فكرة (الموت) وكتب أيضًا قصائد عن فكرة لا نستطيع تسميتها إلا بأنها فكرة (البقاء للأقوى) وفى هذه القصائد يمجد القوة ويثبت أنها سر الحياة .

وهذه الأفكار الثلاث لم تظهر فى شعره بصورة عرضية ، بل ظهرت بصورة قوية تدل على أنها كانت أفكارًا تشغل عقله وقلبه ، و لم تكن مجرد خواطر تمر بباله فيسجلها فى بيت أو بيتين كما كان يفعل الشعراء التقليديون، فشوقى مثلاً عندما أراد أن يعبر عن فكرة (البقاء للأقوى) كتب هذا البيت :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ومع ذلك فلا يمكن أن نقول إن شوقى كان يدعو إلى هذه الفكرة أو ينادى بها فمن الصعب أن نجد فى شعره بيتًا آخر بهذا المعنى ، وإذا وجدنا بيتًا أو عدة أبيات ، فإننا لن نجد قصيدة كاملة تدعو إلى هذه الفكرة ، فالفكرة كانت بالنسبة له مجرد خاطر من الخواطر ، و لم تكن نظرية تشغله وفلسفة تملأ حياته .

على العكس كان الشابى ، فهو شاعر فكرة شاملة ، وليس مجموعة من الخواطر المتناثرة المبعثرة ، ومما لا شك فيه أن حياته القصيرة لم تتح له أن يبلور فكرته الشاملة ويصعد بها إلى مستوى النظرية الكاملة ، ولكن الحقيقة ــ كما أشرنا من قبل ــ أنه واحد من الشعراء العرب النادرين ، سواء فى العصر الحديث أو العصور القديمة ، والذين حاولوا أن يكون لهم فكرة شاملة عن الحياة والإنسان ، وحاولوا أن يكتبوا شعرهم يوحى فلسفة تفسر لهم العالم ، ويحكموا بها على الأشياء ، وحاولوا أيضًا أن تكون هذه الفلسفة عميقة الجذور ، تمس المشاكل الجوهرية فى الحياة الإنسانية ولا تقف عند المسائل السطحية والحكمة الساذجة ، الشائعة على جميع الأفواه ، والتى تشبه (أقراص الأسبرين) التى تسكن الألم السريع تسكينًا عاجلاً ، ولكنها لا تعالج الآلام الكبيرة ، وليس لها علاقة بتجارب الشعور الضخمة .

لم تكن فلسفة الشابى (قرص أسبرين) بل كانت إحساسًا كبيرًا ، وحلمًا بعالم مثالى فكر فيه الشاعر وأراد أن ينادى به دائمًا ، وكانت أيضًا نظرة كلية إلى الإنسان فهو يؤمن بإنسان مثالى يدعو إلى وجوده بحرارة .

فمن أفكاره الهامة فكرة (إرادة الحياة) وهى فكرة أحسها أولا ، ولكنها تبلورت عنده خلال قراءاته لجبران خليل جبران ، الذى نقل هذه الفكرة إلى الثقافة العربية عن مصدرها الأصلى ، وهو : الفيلسوف الألمانى نيتشه ... فجذور فكرة الشابى عن إرادة الحياة تعود إلى طبيعته الخاصة أولاً ، ثم تعود إلى منبعها الثقافى وهو نيتشه .

وبالإمكان أن نلاحظ فكرة (إرادة الحياة) التى عبر عنها الشابى ، ودعا إلى أن ينتفض من خلالها الشعب والإنسان ، ويحاولا أن يتخلصا بها من أوضاعهما التى تحمل رائحة الموت ... تستطيع أن نلاحظ هذه الفكرة فى بعض العبارات التى تتردد كثيرًا فى شعر الشابى مثل : (شوق الحياة) و (صميم

الحياة) و (عزم الحياة) .

فى قصيدته (الأشواق التائهة) يعبر عن إحساسه بالضياع بسبب بحثه الدائم عن (صميم الحياة) حيث لم يجد تلك الصلة التى تربطه بهذا الجوهر العميق :

يا صميم الحياة ! إنى وحيد ... مدلج تائه فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة إنى فؤاد ... ضائع ظامئ فأين رحيقك
يا صميم الحياة أين أغانيك ... فتحت النجوم يصغى مشوقك ؟

وفى قصيدة أخرى يقول :

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه ... عزم الحياة ، إذا ما استيقظت فيه

وفى قصيدته المشهورة (إرادة الحياة) يقول :

ومن لم يعانقه شوق الحياة ... تبخر فى جوها واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة ... من صفعة العدم المنتصر

وفى قصيدة أخرى عنوانها (إلى الشعب) :

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس ... أين الطموح والأحلام ؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان ... أين الخيال والإلهام ؟
إن يم الحياة يدرى حواليك ... فأين المغامر المقدام ؟
أين عزم الحياة ؟ لا شىء إلا ... الموت ،والصمت ،والأسى ، والظلام

ثم يقول فى مقطع آخر من القصيدة مخاطبًا (الشعب) :

يا إلهى ! أما تحس ؟ أما تشدو ؟ أما تشكى ، أما تتألم ؟
مل نهر الزمان أيامك الموتى وأنقاض عمرك المتهدم

أما قصيدته القوية الناضجة (نشيد الجبار) فهى مليئة بهذا المعنى ، معنى إرادة الحياة رغم العقبات سواء كانت هذه العقبات من المجتمع أو كانت من الطبيعة التى تحمل الموت والفناء إلى الإنسان ، وقد جعل الشابى عنوان هذه القصيدة (نشيد الجبار) ، أو (هكذا غنى بروميثيوس) و (بروميثوس) هو سارق النار من الآلهة فى الأساطير اليونانية ، لقد تحمل العذاب الذى فرضته عليه الآلهة فى الأساطير اليونانية ، لكى يقدم نار المعرفة إلى البشر ، كان قويًا وصاحب إرادة قوية إلى أبعد حد ، واختيار الشاعر لهذه الأسطورة ليستمد منها عنوانه هو تعبير عن المعنى العنيف الذى يدور فى نفسه ، وهو أن الإنسان إنما يعيش بقوة (إرادة الحياة) ، ويعيش بهذه القوة فيتجاوز العقبات والمصاعب والآلام التى تحيط به وتعمل على تحطيمه ، مثلما فعل (بروميثيوس) فقد انتصر على الألم وحقق فكرته وسرق نار المعرفة من الآلهة ليعطيها للبشر .

فى هذه القصيدة يقول الشابى :

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة .. هازئًا بالسحب والأمطار والأنواء
إنى أنا النای الذى لا تنتهى أنغامه ، ما دام فى الأحياء

وأنا الخضم الرحب ليس تزيده إلا حياة سطوة الأنواء

. . . . . .

وأقول للجمع الذين تجشموا هدمى وودوا لو يخر بنائى
إن المعاول لا تهد مناكبى والنار لا تأنى على أعضائى

وفى القصيدة تحس بنفس الروح التى كانت تسيطر على نيتشه وهو يطرح فكرته المعروفة عن إرادة القوة فى كتابه : (هكذا تكلم زرادشت) وإن كانت النزعة العقلية عند نيتشه تمتزج بالنزعة الفنية امتزاجًا قويًا ، بينما يعبر الشابى عن فكرته تعبيرًا فنيًا حارًا أكثر مما يهتم بالتعبير الفكرى ، أى أنه لا يفسر الوجود الإنسانى كله ويناقشه حسب فكرة إرادة الحياة ، بل يكتفى بتمجيد هذه الإرادة كحالة من حالات الوجود البشرى .

نجد عند الشابى من الأفكار الفلسفية الأخرى فكرة (الموت) ، وهو يكتب عن الموت كثيرًا ، ويعبر عنه تعبيرًا فنيًا عميقًا ، فمشكلة الموت تشغله بسبب أزمته الخاصة التى تتصل بمرضه الخطير ، فقد كان يشعر بأن الموت يتسلل إلى حياته ويحاول أن يقضى عليها ولذلك لم يغفل عن الشعور بالموت أبدا ، وسبب آخر من أسباب اهتمامه بمشكلة الموت يتمثل فى الحالة الراكدة التى كان يعيش فيها الشعب من حوله ، لقد كان يجد فى هذه الحالة نوعًا من الموت ، فإذا كان الشعور ميتًا والعقل ميتًا فإن الإنسان يكون معدوم الصلة بالحياة ، وليست الحياة عند الشابى فى أعلى معانيها إلا يقظة الشعور ويقظة العقل . وهكذا كان الموت يواجه الشابى فى كل مكان . كان يواجهه عندما ينظر فى داخل نفسه فيجد الموت مزروعًا فى أعز مكان من وجوده ، مكان العاطفة والشعور وهو القلب وكان يواجهه عندما ينظر إلى تجاربه الخاصة

فيجد حبيبته الأولى وربما الأخيرة قد ماتت وبينها وبين عالم الصبا خطوات ، ثم يجد أباه أيضًا قد مات وتركه وسط العواصف قبل أن يبلغ شاطئ الحياة ، ووجد الموت أيضًا ينشر صقيعه القاسى على المجتمع كله ، فالمرأة محجوبة مسجونة فى سجن اسمه البيت ، والحرية السياسية اعتقلتها الفرنسيون والباى ، والحرية الفكرية اعتقلها الكتب الصفراء والتقاليد الفكرية العتيقة ، إنه الموت ، والموت فى كل مكان .

ومن هنا وجد أن الموت هو (وحش) يفترس الأشياء الجميلة فى الحياة ، بل يفترس الحياة نفسها ، ولذلك فقد كان هذا الوحش موضوعًا هامًا لتأملات الشاعر .

ومن الواضح أن تفكير الشاعر فى الموت هو تفكير عميق يرفع الموت إلى درجة المشكلة الأساسية التى تواجهها الحياة وإلى درجة المشكلة الفلسفية التى يجب أن يفكر فيها الإنسان ، وهذا الموقف يختلف عن موقف كثير من الشعراء الآخرين وخاصة فى الأدب العربى الكلاسيكى ، فقليلاً ما كان الشاعر يفكر فى الموت كمشكلة فلسفية إنسانية ، بل كان يفكر فيه دائمًا فى مواقف محددة هى مواقف (الرثاء) التى تتصل بحادثة موت معينة لشخص من الأشخاص . أما الشابى فليس فى شعره كله سوى قصيدة رثاء واحدة لوالده بينما بقية قصائده عن الموت إنما تتناوله كمشكلة مستقلة .

وفى قصيدة من أجمل قصائده هى (فى ظل وادى الموت) يتحدث عن الموت بمعنى عميق من معانيه . فليس الموت فى هذه القصيدة هو موت شخص فحسب ، أو هو فناء يتسلل إلى ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، بل معناه العميق الحقيقى هى أن تصبح الحياة فارغة من المعنى ، أن تصبح بلا دلالة معينة ولا غاية معينة ، وعندما تمشى الحياة بلا غاية ، ويتأمل الإنسان الحياة فيجدها هوة فارغة صامتة لا تدل على شىء .. هنا يولد الموت ، ويطل الموت ليصنع

البداية والنهاية :

نحن نمشى وخلفنا هاته الأكوان تمشى لكن لأية غاية ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الرواية
هكذا قلت للرياح فقالت : سل ضمير الوجود كيف البداية ؟

ثم ماذا هذا أنا فى الدنيا بعيدًا عن لهوها وغناها
فى ظلام الفناء أدفن أيامى ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوى بصمت محزن ، مضجر ، على قدميّا
جف سحر الحياة ، يا قلبى الباكى فهيا نجرب الموت هيا

لقد خلت الحياة من المعنى ، وخلوها من المعنى هو الموت ... فلماذا لا يجرب (الشاعر الموت) . إن الموت عنده هو تجربة ، تجربة كبيرة قد تكشف عن أشياء جديدة .

والفكرة ــ الثالثة ــ التى يهتم بها الشابى اهتمامًا كبيرًا هى فكرة (البقاء للأقوى) وهى فكرة أخرى لها صلة بفلسفة القوة عند نيتشه ، وقد أخذها الشابى أيضًا عن جبران ، وأخذها بالذات لأنها تجاوبت مع إحساسه الخاص ، وتجاوبت مع تأملاته فى الحياة وتأملاته فى الطبيعة ، فالزهرة الضعيفة تذبل ، والعصفور الصغير يقضى عليه الثعبان السام ، فالنتيجة التى وصلت إليها الطبيعة هى نفسها التى تنطبق على حياة الإنسان والشعوب .

وقد عبر الشابى عن هذه الفكرة فى أكثر من قصيدة ، وهذه الفكرة من

أركان فلسفة هذا الشاعر فى الحياة ، فهو يدعو إليها الشعب وينابيه لكى يكون (قويًا) حتى لا تبتلعه الحياة وتقضى عليه ، فالقوة هى ضمان الاستمرار والبقاء .

وأجمل قصيدة عبر فيها الشابى عن هذه الفكرة هى قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس) فقد انقض الثعبان على (شحرور) جميل وافترسه ، وقبل أن يموت العصفور كان يقول : ماذا جنيت أنا فحق عقابى) :

لا شىء إلا أننى متغزل بالكائنات مغرد فى غابى
ألقى من الدنيا حنانا طاهرا وأبثها نجوى المحب الصابى
أيُعدُّ هذا فى الوجود جريمة ؟ أين العدالة يا رفاق شبابى ؟
لا أين ، فالشرع المقدس هاهنا رأى القوى وفكرة الغلاب

وآخر صرخة يقولها العصفور وهو يلفظ أنفاسه :

لا رأى للحق الضعيف ولا صدى الرأى رأى القاهر الغلاب

هذه هى الأفكار الفلسفية الثلاث التى تتردد فى شعر الشابى ، وتتكون منها نظرته إلى الحياة ، فإرادة الحياة والبقاء للأقوى هما الجانبان الإيجابيان فى هذه الفلسفة ، والحيرة والاضطراب أمام الموت والتفكير العميق فيه باعتبار معضلة أليمة من معضلات الحياة ... ذلك هو الجانب السلبى فى هذه الفلسفة ، الجانب الحزين الكئيب الذى يواجه به الشاعر وحشة الحياة ،وفراغ بعض لحظاتها من المعنى ، وانفجار الكارثة فى لحظات أخرى منها ، وهى كارثة بلا مقدمات ولا أسباب معقولة ، إنها أشبه بالكارثة الإنسانية التى أسماها أديب فرنسى هو ألبير كامى باسم (العبث) ، ذلك الشىء المخيف

الذى يبتلع الحياة ، ويذبحها ، ويقضى عليها .

ومرة أخرى نقول : إن الشابى من الشعراء العرب القلائل والقلائل جدًا ، الذين حاولوا أن يصلوا إلى المستوى الفلسفى الرفيع ويتخلصوا من مفهوم الشعر الجميل بألفاظه وأنغامه فقط . حيث حيث يندفع هذا النوع من الشعراء إلى الحديث في قصائدهم عن موضوعات تافهة ، ولا بأس أن يقول خواطر متناثرة متناقضة ، فينفى فى المساء ما أثبته في الصباح . إن الشابى يرفض هذا كله ويعتبر الشعر الجميل حقاً هو وظيفة إنسانية رفيعة ، تتصل بأعماق :

الحياة وأعماق الإنسان ، وتحاول أن تواجه المشكلات الكبرى فى هذا الوجود ، بدلاً من مدح إنسان أو البكاء على طلل من الأطلال أو الاشتراك فى المناسبات السطحية المختلفة .

إنه شاعر فلسفة شاملة عميقة ، وإن كانت ظروفه السيئة لم تتح له أن يصل بهذه الفلسفة إلى النضج الكامل فإنه بلا شك قد سار فى الطريق الصحيح للشعر الرفيع ، ووصل إلى أعلى درجة يمكن أن يصل إليها شاعر عظيم فى مثل سنه وظروفه الصحية والاجتماعية والثقافية ، وهى ظروف أقل ما يقال عنها : إنها كانت ظروفًا عسيرة .